المبحث الثاني:

الإسلام والشرائع السابقة

إن الله عز وجل شاء أن تكون رسالة محمد صلى الله عليه وسلم خاتمة الرسالات السماوية، والتي اختصت عرفاً بمدلول كلمة الإسلام، كما أن كلمة (اليهودية) أو (الموسوية) تخص شريعة موسى عليه السلام، وما اشتق منها، وكلمة (النصرانية) أو (المسيحية) تخص شريعة عيسى عليه السلام، وما تفرع عنها.

والذي لا شك فيه، أن هذه الرسالة الخاتمة جاءت دعوة إنسانية عالمية، لا تخاطب قوما بأعيانهم ولا جنسا بذاته: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨]..

وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى عموم بعثته، وعالمية دعوته، فقال: «أُعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي: كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود...»[1].

والذي لا شك فيه أيضاً: أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد أُرسل من عند الله بدين بلغ ذروة الكمال، الذي لا كمال بعده، وتوجه الخطاب فيه للعالمين كافة، والنتيجة المنطقية اللازمة لهذا الكمال، أن تنقطع صلة الإنسانية عن سائر الرسالات والنبوات

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة، رقم: (٥٢١).

السابقة في طاعتها واتباعها، مع عدم إغفال الإيمان بأصولها المنزلة، لا بما آلت إليه بعد التحريف على يد الأتباع، على اعتبار أن الإسلام بمعناه العام، هو دين الأنبياء جميعاً، عليهم الصلاة والسلام.

إذ إن القرآن الكريم شاهد على ما في الكتب السماوية المنزلة قبله، يشهد لأصولها المنزلة الصدق، ويشهد عليها وعلى أصحابها بما وقعوا فيه من نسيان حظ عظيم وإضاعته، وتحريف كثير مما بقي وتأويله[1].

وإذا كان الإسلام بمعناه العام، هو دين الأنبياء جميعاً عليهم الصلاة والسلام - كما سبق القول - مما يعني أنه لا مجال للتساؤل عن العلاقة بين الإسلام وبين سائر الأديان السماوية الأخرى هنا، إذ لا يسأل عن العلاقة بين الشيء ونفسه، فيا ترى ما هي العلاقة بين الإسلام بمعناه الخاص وهو الدين الذي أنزله الله تعالى على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وبين الأديان السماوية الأخرى؟

* **وجواب ذلك على شقين:**

➢ **الشق الأول:** أن شريعة الإسلام، والشرائع السماوية السابقة عليه وهي في صورتها الأولى لم تبعد عن منبعها، ولم يتغير فيها شيء بفعل الزمان ولا بيد الإنسان، فكل رسول يرسل، وكل كتاب ينزل، يأتي مصدقاً ومؤكداً لما قبله، فالإنجيل مصدق ومؤيد للتوراة، والقرآن مصدق ومؤيد للإنجيل والتوراة، ولكل ما بين يديه من الكتاب، إذ هناك تشريعات خالدة، لا تتبدل ولا تتغير مهما تغيرت الأصقاع

---

(١) دراسات في السياسة الشرعية، ص ١٥٦. دار الوفاء، مصر ط٢.

والأوضاع، ويقابلها تشريعات أخرى جاءت موقوتة بآجال طويلة أو قصيرة،فهذه تنتهي بانتهاء وقتها، ثم تأتي الشريعة التالية لها، بما هو أوفق وأرفق بالأوضاع الناشئة الطارئة.

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله ما مضمونه في هذا الصدد: جاء القرآن الكريم فغير الله تعالى فيه بعض الأحكام التي جاءت في التوراة والإنجيل، وقوفًا بها عند وقتها المناسب، وأجلها المقدر لها في علم الله سبحانه وتعالى، وما كان فيها من الأحكام صحيحاً موافقاً لقواعد السياسة الدينية، لا يغيره، بل يدعو إليه ويحث عليه، وما كان سقيماً دخله التحريف، فإنه يغيره بقدر الحاجة، وما كان حرياً أن يزداد فإنه يزيده على ما كان في الشرائع السابقة.

وعلى هذا، فإن الإسلام قد اعترف بالشرائع الأخرى السماوية السابقة كما نزلت على الرسل السابقين، شرائع وديانات قامت على وحدة الذات والصفات الألوهية، وتبشر كتبها بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وتطالب الذين حضروا دعوته من بعدها أن يؤمنوا بالإسلام.

➢ **الشق الثاني**: أن الشرائع السماوية السابقة على الإسلام، بعد أن طال عليها الأمد، نالها من التغيير والتحريف والكتمان والتبديل ما كان كفيلاً بتحويلها عن أصلها، من ديانة توحيد إلى ديانات وثنية في معظم ما بقي منها، بل قل في كلها.

والقرآن حارس وأمين ومهيمن على هذه الديانات السماوية، وهذه صفة أخرى تضاف إلى صفة اعتراف القرآن بهذه الديانات، إذا لم يعتريها تغيير أو كتمان، ومن ثم إسقاط مبدأ الإيمان عن الذي لا يؤمن بهذه الشرائع، باعتبارها ديانات توحيد تؤمن

بالله واليوم الآخر، لأن من شأن القرآن ألا يكتفي بتأييد ما في هذه الديانات من حق وخير، بل عليه فوق ذلك أن يحميها من الدخيل، الذي عساه أن يضاف إليها بغير حق، وأن يبرز ما تمس إليه من الحقائق التي عساها أيضاً أن تكون قد أخفيت منها[1].

*** وتأسيساً على ما سبق، يمكن أن نخلص إلى:**

➢ **أولاً**: وحدة المصدر للأحكام التكليفية في الأديان السماوية، قائمة قيام وحدة الهدف تماماً، وحتى إن اختلفت وسائل المعالجة فكلها من عند الله سبحانه وتعالى، كما أن هدفها الأخذ بالخلق إلى طريق الرشد، وتحرير العقل، وتثبيت التوحيد.

➢ **ثانياً**: أن شرع من قبلنا شرع لنا، والمراد بشرع من قبلنا ما نقل إلينا من أحكام تلك الشرائع، التي كانوا مكلفين بها على أنها شرع الله عز وجل لهم، وما بينه لهم رسلهم عليهم الصلاة والسلام، مثل تحريم الزنا والسرقة، والقتل، والكفر، فكل نبي دعا لحرمة ذلك وما شاكله، وكذلك نبينا عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام.

(ولا خلاف في أن الشريعة الإسلامية، نسخت جميع الشرائع السابقة، على وجه الإجمال، كما أنه لا خلاف في أنها لم تنسخ جميع ما جاء في تلك الشرائع، على وجه التفصيل)[2].

فالزنا وما يتعلق به من توابع محرم في تلك الشرائع السماوية، وكذلك السرقة، والقتل، والكفر.. كذلك لا خلاف في أن ما نقل إلينا من شرائع من قبلنا، في كتب أصحاب تلك الشرائع، أو على ألسنة أتباعها، ليس بحجة علينا، لأن هذا النقل فاقد

---

(١) الإسلام شريعة لكل زمان، محمد أبو الوفا، ص ٨٨.

(٢) الحضارات المتكاملة عبر التاريخ، لويس ماسنيون، ترجمة ميسون الدراز، ص ٩٤.

لمصداقيته، لما وقع في كتبهم من تغيير وتحريف، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨].

* وعلى الجملة:

فالمختار عند الحنفية والمالكية، أن شرع من قبلنا شرع لنا، وإنه حجة يلزمنا العمل بها ما لم يرد في شرعنا ما ينسخ، يقول ابن الحاجب[1] ما نصه: (المختار أنه - أي: النبي صلى الله عليه وسلم - بعد البعث متعبد بما لم ينسخ).

وقال في «المنار»: (وشرائع من قبلنا تلزمنا إذا قص الله ورسوله من غير إنكار).

وبعد: فقد بات من المقطوع به أثراً لعلاقة الإسلام بالشرائع السماوية الأخرى، تحريم الزنا في كافة الشرائع السماوية، وهي حرمة من الإطلاق والعموم، بحيث تشمل الجريمة كاملة الأركان، وكل مقدماتها، بل وكل آثارها، بما في ذلك الإجهاض، إن كان مبعثه على غير ضرورة شرعية، وغايته دفن معالم جريمة حرمها الله في كل الأديان، وخاطب بها بني البشر جميعاً من خلال رسله وكتبه.

---

(١) ابن الحاجب: عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس، أبو عمرو جمال الدين ابن الحاجب: فقيه مالكي، من كبار العلماء بالعربية. كردي الأصل. ولد في أسنا من صعيد مصر ونشأ في القاهرة، وسكن دمشق، ومات بالإسكندرية سنة ٦٤٦هـ. وكان أبوه حاجبا فعرف به. من تصانيفه الكافية، في النحو، و الشافية، في الصرف. وفيات الأعيان:١/ ٣١٤ خطط مبارك:٨/ ٦٢وغاية النهاية: ١/ ٥٠٨ ومفتاح السعادة: ١/ ١١٧وآداب اللغة: ٣/ ٥٣.

■ **موقف القرآن من الأديان السابقة:**

خاطب القرآن أهل الأديان السماوية السابقة، وهم اليهود والنصارى بألطف العبارات وأجمل الألفاظ فكان وصفهم دائماً بلفظ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ حيث وردت هذه الكلمة في واحد وثلاثين موضعاً[1].

وخاطبهم أيضاً بلفظ ﴿الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ﴾ وذلك في ثلاثين موضعاً[2].

وهذا الخطاب فيه الاحترام الكبير، فهو يقول لهم: يا أصحاب العلم والمعرفة، ويا أهل المخطوطات المقدسة السماوية.

والمستعرض لمنهج القرآن في الحديث عن أهل الكتاب يجده يتحدث عن صنفين: صنف اتبع الحق وآمن به، وسار على نهج الأنبياء كلهم حتى خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم، وصنف آخر جهل الحقائق، وخالف نهج الأنبياء.

وينضح هذا التصنيف من خلال استقراء الآيات القرآنية فنحن نقرأ: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَآءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣، ١١٤].

وامتدح القرآن الذين اتبعوا الحق وكانوا خاشعين فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ للهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. (ص٥٩٢ وما بعدها).

(٢) المرجع السابق.

ثم سمي القرآن علماء أهل الكتاب المتبعين للحق بأنهم الراسخون، فقال: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء: ١٦٢].

وتحدث القرآن عن خشوع أهل الكتاب ورقة قلوبهم وخضوعهم للحق الذي جاء على لسان النبي محمد صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَىٰ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣].

○ **تحقيق في مفهوم أهل الذمة «الذمية»:**

لقد أسيئ استغلال لفظ أهل الذمة – عمداً أو خطأ – أيما إساءة، وذلك لأغراض نحسبها الآن يقيناً أنها سياسية، ولتجلية حقيقة هذا المفهوم نقول:

لقد وضع القرآن قاعدة تعد الدستور الأساسي في معاملة المسلمين لغيرهم من الناس فقال: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

فالآية واضحة تماماً في تقرير العلاقة بين المسلمين وغيرهم، إنها علاقة قائمة على أمر أعظم من العدل – الذي هو إعطاء كل ذي حق حقه – وإنما ترتقي هذه العلاقة إلى مرحلة الإحسان – وهو الزيادة على الحق فضلاً – ولقد قدمت الآية لفظ البر على لفظ القسط –وهو العدل– وهي إشارة رائعة من الآية إلى كيفية معاملة غير المسلمين، إنها

علاقة قائمة على البر والإحسان، والشيء الرائع أن الإسلام سمّى غير المسلمين داخل مجتمعه(أهل الذمة) أي أهل العهد والضمان والأمان، لأن لهم عهد الله، وضمان رسوله، وأمان جماعة المسلمين على أن يعيشوا في حماية الإسلام وتحت راية المجتمع الإسلامي آمنين مطمئنين[1].

والذمة هنا ليست ذمة وصاية فوقية كما هو أسلوب الحضارة الغربية المعاصرة، بل هي عهد حماية وصيغة تعامل مع الغير، وتعبير:(لهم ما لنا، وعليهم ما علينا) هو تكملة مفهوم أهل الذمة.

ولكن العجب من البعض أنهم يعتبرون هذه التسمية تسميةً فيها شيء من الدُونِيّة، وهذا كلام مرفوض، فمن يفهم كلمة العربي حين يقول: (أنت في ذمتي) يعي تماماً ما معنى أهل الذمة، أي: أنت في حمايتي ورعايتي وكنفي، لا أؤذيك ولا أسمح لأحدٍ بأذيتك[2].

ويمكن استبدال هذه الكلمة حالياً فيما يسمى بالعرف السياسي باسم (حاملي الجنسية الإسلامية)[3] فهؤلاء في الحقيقة مواطنون كبقية أفراد المجتمع المسلم.

---

(١) انظر: بدائع الصنائع (٧/ ١١٠) والمغني (٨/ ٤٩٦).

(٢) الإسلام وفقه الأقليات، عبد الله ناصر الدوسري، ص ١٣١.

(٣) انظر: أحكام الذميين والمستأمنين (ص٦٥).

موقف الإسلام من غير المسلمين داخل المجتمع الإسلامي

وضع فقهاء الشريعة الإسلامية قاعدة لتوضح العلاقة بين المسلمين وغيرهم داخل المجتمع وهذه القاعدة قائمة على المعاملة بالمثل، وقد قيل قديماً: (مَنْ عاملك كنفسه لم يظلمك).

وهذه القاعدة هي (لهم ما لنا، وعليهم ما علينا)[1] وتفسيرها ليس على إطلاقها، وإنما: لهم ما لنا من الحقوق والحريات، وعليهم بعض الذي علينا من الواجبات وقد فُسرت هذه القاعدة من خلال النقاط التالية:

آ - تأمين الحماية من العدوان الخارجي:

حيث يوجب المجتمع الإسلامي أن تُؤَمَّن كل ضوابط الحماية لكل من رضي العيش بداخله، وهذا ما صرح به الفقهاء في إرشاداتهم.

يقول ابن حزم الأندلسي[2]: (إن من كان في الذمة وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكِرَاع والسلاح ونموت دون ذلك، صوناً لمن هو في ذمة الله تعالى، وذمة رسوله، فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة)[3].

---

(١) انظر: بدائع الصنائع (٧/ ١٠٠).

(٢) ابن حزم: عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن حزم، أبو المغيرة: أديب أندلسي، من الكتاب. من أهل قرية الزاوية من قرى أونبة انتقل إلى بلاد الثغر، وكتب عن عدة من الملوك، وألف تآليف، واتسعت ثروته. ومات شاباً سنة ٤٣٨هـ.

(٣) انظر: الفروق، الفرق (١٩) (٣/ ١١٤).

ولعل أروع الأمثلة على ذلك في التاريخ موقف القائد أبي عبيدة بن الجراح[1] من أهل حمص وغيرهم حينما ردّ عليهم أموالهم التي دفعوها مقابل حمايتهم من الاعتداء الخارجي بسبب عجزهم عن ذلك فقالوا: ردكم الله إلينا ولعن الله الذين كانوا يملكوننا من الروم، ولكن والله لو كانوا هم ما ردوا إلينا بل غصبونا[2].

وهذا ابن تيمية يقف بعنف في وجه التتار عندما أرادوا إطلاق سراح أسرى المسلمين فقط، وإبقاء النصارى بالأسر فقال: إنا لا نرضى إلا بافتكاك جميع الأسرى من المسلمين وغيرهم، لأنهم أهل ذمتنا، ولا ندع أسيراً لا من أهل الذمة، ولا من أهل الملة[3].

ب- تأمين الحماية الداخلية:

* وتشتمل هذه الحماية على ما يلي:

١)- حماية الدماء والأبدان: حيث تضافرت الأحاديث النبوية وسلوك الصحابة على تحريم إلحاق أي أذى أو ظلم بأي إنسان مواطن أو زائر غير مسلم هو في ذمة

---

(١) أبو عبيدة بن الجراح: عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال الفهري القرشي: الأمير القائد، فاتح الديار الشامية، والصحابي، أحد العشرة المبشرين بالجنة، قال ابن عساكر: داهيتا قريش أبو بكر وأبوعبيدة. وكان لقبه أمين الأمة ولد بمكة. وهو من السابقين إلى الإسلام. وشهد المشاهد كلها. وولاه عمر بن الخطاب قيادة الجيش الزاحف إلى الشام، بعد خالد بن الوليد، فتم له فتح الديار الشامية، وبلغ الفرات شرقا وآسية الصغرى شمالاً، ورتب للبلاد المرابطين والعمال، وتعلقت به قلوب الناس لرفقه وأناته وتواضعه. وتوفي بطاعون عمواس سنة ١٨هـ ودفن في غور بيسان، وانقرض عقبه. له ١٤ حديثاً. الإصابة ١/ ١١٨، الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٣٤٥.

(٢) انظر: فتوح البلدان (١٤٣).

(٣) انظر: الرسالة القبرصية (٤٠).

المسلمين وعهدهم من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «ألا من ظلم معاهداً، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس منه، فأنا حجيجه يوم القيامة»[1].

وقوله أيضاً: «من آذى ذمياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة»[2].

وكان علماء المسلمين يوصون الأمراء والخلفاء بحسن معاملة غير المسلمين والإحسان إليهم فهذا القاضي أبو يوسف[3] يكتب إلى الرشيد[4] قائلاً: (..وقد ينبغي يا

---

(١) رواه أبو داود (٢/ ٤٦)، والبيهقي في الكبرى ٩/ ٢٠٥.

(٢) رواه الخطيب، انظر: الجامع الصغير (٢/ ٤٧٣).

(٣) أبو يوسف: يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي، أبو يوسف: صاحب الإمام أبي حنيفة، وتلميذه، وأول من نشر مذهبه. كان فقيها علامة، من حفاظ الحديث. ولد بالكوفة. وتفقه بالحديث والرواية، ثم لزم أبا حنيفة، فغلب عليه الرأي وولي القضاء ببغداد أيام المهدي والهادي والرشيد. ومات في خلافته، ببغداد سنة ١٨٢هـ، وهو على القضاء. وهو أول من دعي قاضي القضاة ويقال له: قاضي قضاة الدنيا، وأول من وضع الكتب في أصول الفقه، على مذهب أبي حنيفة. وكان واسع العلم بالتفسير والمغازي وأيام العرب. مفتاح السعادة: ٢/ ١٠٠ الفهرست: ٢٠٣ وأخبار القضاة لوكيع: ٣/ ٢٥٤ والنجوم الزاهرة: ٢/ ١٠٧ والبداية والنهاية: ١٠/ ١٨٠.

(٤) هارون الرشيد ابن محمد المهدي ابن المنصور العباسي، أبو جعفر: خامس خلفاء الدولة العباسية في العراق، وأشهرهم. ولد بالري، لما كان أبوه أميرا عليها وعلى خراسان. ونشأ في دار الخلافة ببغداد. وولاه أبوه غزو الروم في القسطنطينية، فصالحته الملكة إيريني وافتدت منه مملكتها بسبعين ألف دينار تبعث له إلى خزانة الخليفة في كل عام. وبويع بالخلافة بعد وفاة =

أمير المؤمنين - أيدك الله - أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم)[1].

ومن أمثلة التاريخ أيضاً وقوف الإمام الأوزاعي[2].....

= أخيه الهادي سنة ١٧٠ هـ فقام بأعبائها، وازدهرت الدولة في أيامه. واتصلت المودة بينه وبين ملك فرنسة كارلوس الكبير الملقب بشارلمان فكانا يتهاديان التحف. وكان الرشيد عالماً بالأدب وأخبار العرب والحديث والفقه، فصيحا، له شعر أورد صاحب الديارات نماذج منه، له محاضرات مع علماء عصره، شجاعاً كثير الغزوات، يلقب بجبار بني العباس، حازماً كريماً متواضعاً، يحج سنة ويغزو سنة، لم ير خليفة أجود منه، ولم يجتمع على باب خليفة ما اجتمع على بابه من العلماء والشعراء والكتاب والندماء ولايته ٢٣ سنة وشهران وأيام. توفي في سناباذ من قرى طوس، وبها قبره سنة ١٩٣هـ. البداية والنهاية: ١٠/ ٢١٣ وابن الأثير: ٦/ ٦٩ والطبري: ١٠/ ٤٧ وتاريخ بغداد: ١٤/ ٥ .

(١) انظر: الخراج (١٣٦).

(٢) الأوزاعي: عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي، من قبيلة الأوزاع، أبو عمرو: إمام الديار الشامية في الفقه والزهد، وأحد الكتاب المترسلين. ولد في بعلبك، ونشأ في البقاع، وسكن بيروت وتوفي بها سنة ١٥٧هـ. وعرض عليه القضاء فامتنع. قال صالح بن يحيى في تاريخ بيروت: كان الأوزاعي عظيم الشأن بالشام، وكان أمره فيهم أعز من أمر السلطان، وقد جعلت له كتاب يتضمن ترجمته. له كتاب السنن في الفقه، و المسائل ويقدر ما سئل عنه بسبعين ألف مسألة أجاب عليها كلها. وكانت الفتيا تدور بالأندلس على رأيه، إلى زمن الحكم بن هشام. ابن النديم ١/ ٢٢٧ والوفيات: ١ / ٢٧٥ وتاريخ بيروت: ١٥ وحلية الأولياء: ٦/ ١٣٥.

في وجه الوالي العباسي صالح بن علي[1] عندما أساء إلى بعض أهل الذمة. كل ذلك تأكيدٌ لحماية غير المسلمين في المجتمع الإسلامي[2].

٢)- حماية الأعراض:

فلا يجوز في الإسلام إلحاق أي أذى بالمسلم أو غير المسلم من شتم أو قذف أو تجريح أو حتى غيبة، يقول فقهاء الحنفية: (ويجب كفّ الأذى عنه [أي الذمي] وتحرم غيبته كالمسلم)[3].

ويقول فقهاء المالكية: (إن عقد الذمة يوجب حقوقاً علينا لهم... فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة في عرض أحدهم أو نوع من أنواع الأذية أو أعان على ذلك فقد ضيّع ذمة الله)[4].

---

(١) صالح بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي: الأمير، عم السفاح والمنصور، وأول من ولي مصر من قبل الخلفاء العباسيين. تعقب مروان بن محمد لما فر من الشام، وقتله ببوصير سنة ١٣٢ هـ فولاه السفاح مصر في أوائل سنة ١٣٣ فأقام سبعة أشهر وأياماً، فتك فيها بكثيرين من أشياع بني أمية. وضمت إليه ولاية فلسطين، فانتقل إليها. ثم ورد كتاب بولايته على مصر وفلسطين وإفريقية، فعاد إلى مصر سنة ١٣٦ وولي الخلافة أبو جعفر المنصور، في هذه السنة، فأمره بالعودة إلى فلسطين. ثم جعل ينقله إلى أن أقره بالجزيرة، فكانت له الديار الشامية كلها. وأنشأ مدينة أذنة في الأناضول وكسر الروم في وقائع مرج دابق، وكانوا نحو مئة ألف. وكان شجاعاً حازماً. مولده بالشراة من أرض البلقاء ووفاته بقنسرين سنة ١٥١هـ. دول الإسلام:١/ ٧٩ والنجوم الزاهرة: ١/ ٣٢٣ وتهذيب ابن عساكر: ٦/ ٣٧٦.

(٢) انظر: فتوح البلدان (١٦٧).

(٣) انظر: الدر المختار (٣/ ٢٥٠).

(٤) انظر: الفروق (٣/ ١٤).

٣)- حماية الأموال:

وهي مشابهة لحماية الدماء والأعراض وكان من ضمن المعاهدة التي وقعها النبي مع نصارى نجران قوله: «ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأرضهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبِيَعِهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير»[1].

والواقع التطبيقي لأحكام الشريعة يظهر بوضوح هذه الحماية لكل ممتلكات غير المسلمين فلهم الحق في دخول كل المعاملات الاقتصادية وممارسة كل الصفقات إلى غير ذلك من الحرية الاقتصادية، وحق التملك.

٤) - كفالة بيت المال:

يكفل المجتمع الإسلامي للمسلم وغيره كل الاحتياجات وبخاصة عند العجز عن الكسب والعمل، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع، ومسئول عن رعيته»[2].

والأمثلة على ذلك كثيرة فأهل الذمة هم من أولى الناس مع المسلمين بالبر والصلة وكانت ضمانات المجتمع المسلم واضحة ضد الفقر والعجز والشيخوخة لكل فئات المجتمع لا تفريق بين مسلم وغيره، فهذا صلح خالد بن الوليد مع أهل الحيرة جاء فيه (... وجعلتُ لهم أيّما شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنياً

---

(١) انظر: الخراج (٧٨).

(٢) رواه البخاري (١/ ١٦٠).

فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين وعياله، ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام)[1].

وقد أقر الخليفة الصدّيق خالداً على ذلك.

وقد قيل إن مساعدة الذمي من بيت مال المسلمين حال عجزه أمرٌ قد أجمعت عليه الأمة[2].

ومن الأمثلة أيضاً كتاب الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى والي البصرة جاء فيه: (أما بعد فانظر أهل الذمة فارفق بهم، وإذا كبر الرجل منهم وليس له مالٌ فأنفق عليه)[3].

ج- الحريات العامة:

* وتشتمل هذه الحريات على ما يلي:

١)- حرية المعتقد، وممارسة الشعائر، وصون أماكن العبادة، أو بتعبير آخر: حق الاعتقاد والتدين.

جاء الإسلام لهداية البشرية وإنقاذها من الضلالة والأوهام، ومن ظلمات الجهل والخرافة، وقد فتح للهداية أبواباً من البينات والدلائل العقلية الواضحة، وحث الإنسان على التدبر في الكون والحياة، وفي آفاق النفس البشرية ليهتدي بعد التدبر والاستدلال، وجعله حرّاً في إرادته في الإيمان والاعتقاد مخيراً لا مسيراً، ولهذا لم يكره

---

(١) انظر: الخراج (١٥٦).

(٢) انظر: أحكام الذميين والمستأمنين (١٠٤).

(٣) انظر: الطبقات الكبرى (٥/ ٣٨٠).

أحدا على تبني العقيدة الإسلامية، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

وصرّح القرآن الكريم بعدم الإكراه في الدين والاعتقاد فقال: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ..﴾ الآية [البقرة: ٢٥٦].

وحول تفسير الآية الكريمة قال العلاّمة الطبري[1]: «إنّ المراد ليس في الدين إكراه من الله، ولكنّ العبد مخيّر فيه لأنّ ما هو دين في الحقيقة هو من أفعال القلوب إذا فعل لوجه وجوبه، فأمّا ما يكره عليه من إظهار الشهادتين فليس بدين حقيقة».

وقال العلاّمة الطباطبائي: «وهذه إحدى الآيات الدالّة على أنّ الإسلام لم يبتنِ على السيف والدم ولم يفتِ بالإكراه والعنوة على خلاف ما زعمه عدة من الباحثين من المنتحلين وغيرهم أنّ الإسلام دين السيف... إن القتال الذي ندب إليه الإسلام ليس لغاية إحراز التقدّم وبسط الدين بالقوة والإكراه، بل لإحياء الحق والدفاع عن أنْفَسِ

---

(١) الطبري: محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر: المؤرخ المفسر الإمام. ولد في آمل طبرستان، واستوطن بغداد وتوفي بها. وعرض عليه القضاء فامتنع، والمظالم فأبى. له أخبار الرسل والملوك يعرف بتاريخ الطبري، في ١١ جزءاً، وجامع البيان في تفسير القرآن، يعرف بتفسير الطبري، في ٣٠ جزءاً وهو من ثقات المؤرخين، قال ابن الأثير: أبو جعفر أوثق من نقل التاريخ، وفي تفسيره ما يدل على علم غزير وتحقيق. وكان مجتهداً في أحكام الدين لا يقلد أحداً، بل قلده بعض الناس وعملوا بأقواله وآرائه. وكان أسمر، أعين، نحيف الجسم، فصيحاً توفي سنة ٣١٠هـ. إرشاد الأريب: ٦/ ٤٢٣ وتذكرة الحفاظ: ٢/ ٣٥١ وطبقات السبكي: ٢/ ١٣٥ والبداية والنهاية: ١١/ ١٤٥.

متاعٍ للفطرة وهو التوحيد، وأمّا بعد انبساط التوحيد بين الناس وخضوعهم لدين النبوة ولو بالتهوّد والتنصّر، فلا نزاع لمسلم مع موحّد ولا جدال»[1].

وقال أيضاً: «إن الآية أعني قوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] غير منسوخة بآية السيف».

وقد جسّد رسول الله صلى الله عليه وآله هذه الحقيقة في سيرته العملية، فلم يكره أيّ أحد على تبني العقيدة الإسلامية، ففي أوائل هجرته «جاءه اليهود: (قريظة والنضير والقينقاع) فقالوا: يا محمّد إلامَ تدعو؟ قال: إلى شهادة أنّ لا إله إلّا الله، وأنّي رسول الله الذي تجدونني مكتوباً في التوراة، والذي أخبركم به علماؤكم أن مخرجي بمكة ومهاجري بهذه الحرّة... فقالوا له: قد سمعنا ما تقول وقد جئناك لنطلب منك الهدنة على أن لا نكون لك ولا عليك، ولا نعين عليك أحداً، ولا تتعرض لنا ولا لأحد من أصحابنا حتى نظرنا إلى ما يصير أمرك وأمر قومك، فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وآله إلى ذلك وكتب بينهم كتاباً أن لا يعينوا على رسول الله، ولا على أحد من أصحابه بلسان ولا يد ولا بسلاح ولا بكراع في السرّ والعلانية لا بليل ولا بنهار، والله بذلك عليهم شهيد»[2].

أقر الإسلام بوضوح تام حرية الاعتقاد لكل الناس، فلا إكراه لأحد على دخول الإسلام، وإن كان يدعوهم إليه.

---

(١) روائع البيان في تفسير القرآن للطبطبائي، ٢/ ٤٥٦.

(٢) تفسير الطبري٢٦/ ١١.

والدعوة إلى دخول الإسلام، والإجبار عليه أمران متضادان: الأول جائز مشروع، والثاني حرام ممنوع بقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

والقاعدة في ذلك هي قول الإمام علي كرم الله وجهه: {نتركهم وما يدينون}[١].

والشواهد التاريخية على هذا كثيرة من زمن النبي إلى عصرنا الحاضر فقد جاء في عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى يهود المدينة «... لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأَثِم»[٢].

وفي عهده أيضاً لأهل نجران «... ولا يغير أُسْقفٌ من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، وليس عليه دَنيّة»[٣].

وقد حُفِظ رجال الدين المسيحيين واليهود من سطوة الحروب، فقد جاء في الحديث قوله عليه الصلاة والسلام «لا تقتلوا الوِلدان ولا أصحاب الصوامع»[٤].

وفي خطبة الصديق إلى جيوشه لتحرير العراق والشام جاء قوله:(وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له)[٥].

---

(١) انظر: تكملة فتح القدير (٧/ ٣٩٨).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام.

(٣) انظر: الخراج (ص٧٨).

(٤) رواه أحمد (١/ ٣٠٠).

(٥) انظر: تاريخ الرسل والملوك (٢/ ٢٤٦).

وجاء في عهد الفاروق إلى أهل القدس ضمانة واضحة لحريتهم الدينية وحرمة معابدهم وشعائرهم ما نصه: (هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان: أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم سقيمها وبريئها، وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حَيِّزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار منهم)[1].

ومن أبلغ الأمثلة على تسامح الإسلام الرفيع سماح النبي صلى الله عليه وسلم لوفد نصارى نجران وكانوا ستين شخصاً أنْ يدخلوا مسجده وأن يجلسوا فيه بضعة أيام فإذا حضرت صلاتهم قاموا متوجهين إلى الشرق على مرأى ومسمع من رسول الله دون اعتراض منه أو منع[2].

والحق الذي يجب الصدع به أن أعظم الشواهد الواقعية على حرية المعتقد في الإسلام هو ما يرى الآن وبعد فترة حكم دامت أربعة عشر قرناً ما يرى الآن من أماكن العبادة: الكنائس والمعابد والأديرة. منتشرة في كل مكان من بقاع العالم الإسلامي شرقاً وغرباً وهي شواهد عيان تنطق بحرية المعتقد التي جاء بها الإسلام فلو أن المسلمين كانوا كغيرهم من أتباع الملل والنِحل لما شوهد برج كنيسة واحد ولَما سُمِع صوت ناقوس، على حين أن الآخرين كانوا يستأصلون شأفة المسلمين في ديارهم فما الأندلس مِنّا ببعيد، وما البوسنة والهرسك عَنّا بغائبة.

---

(١) انظر: تاريخ الرسل والملوك (٢/ ٢٤٦).

(٢) انظر: السيرة النبوية (١/ ٥٧٤).

٢)- حرية الفكر والتعلم:

عندما أرسى الإسلام قواعد المجتمع الإسلامي كان من بين أسسه نشر العلم بين كل فئات ذلك المجتمع، وأبلغ دليل على ذلك هو كثرة الإنتاج العلمي الذي ظهر على أيدي غير المسلمين في شتى المجالات العلمية واشتهرت أسماء علماء كثر من اليهود والنصارى وغيرهم.

فليس في أحكام الإسلام ما يمنع غير المسلمين من حرية الفكر والتعلم، ولهم تعليم أبنائهم وتنشئتهم وفق مبادئ دينهم، ولهم إنشاء المدارس الخاصة بهم.

وكانت أول مظاهر هذه الحرية قد ظهرت في تطبيقات الرسول العملية، إذ كان من ضمن الغنائم التي آلت إلى المسلمين بعد فتح خيبر مجموعة كبيرة من نسخ التوراة فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بردها مباشرة إلى أصحابها اليهود[١].

ولقد كانت الجامعات والمعاهد الإسلامية عبر التاريخ مفتوحة على مصارعها لأهل الذمة حتى تتلمذوا على أيدي علماء وفقهاء المسلمين، فدرس حُنين ابن إسحاق[٢]

---

(١) انظر: أحكام الذميين والمستأمنين (١٠١).

(٢) حنين بن إسحاق العبادي، أبو زيد: طبيب، مؤرخ، مترجم: كان أبوه صيدلانيا، من أهل الحيرة في العراق وسافر حنين إلى البصرة فأخذ العربية عن الخليل بن أحمد، وانتقل إلى بغداد فأخذ الطب عن يوحنا بن ماسويه وغيره، وتمكن من اللغات اليونانية والسريانية والفارسية، فانتهت إليه رياسة العلم بها بين المترجمين، مع إحكامه العربية، وكان فصيحاً بها شاعراً واتصل بالمأمون فجعله رئيساً لديوان الترجمة، وبذل له الأموال والعطايا. وجعل بين يديه كُتَّاباً نحارير عالمين باللغات، كانوا يترجمون ويتصفح حنين ما ترجموا فيصلح ما يرى فيه خطأ. ولخص كثيراً من =

على يد الخليل الفراهيدي[1]، وسيبويه[2]، حتى أصبح حجة في اللغة العربية وتتلمذ

= كتب أبقراط وجالينوس وأوضح معانيها. وكان المأمون يعطيه من الذهب زنة ما ينقله إلى العربية من الكتب، فكان يختار لكتبه أغلظ الورق، ويأمر كتابه يخطوها بالحروف الكبيرة ويفسحوا بين السطور. ورحل رحلات كثيرة إلى فارس وبلاد الروم. وعاصر تسعة من الخلفاء توفي سنة ٢٦٠هـ. وكان يحفظ إلياذة هوميروس. له كتب ومترجمات كثيرة تزيد على مئة، منها تاريخ العالم والمبدأ والأنبياء والملوك والأمم إلى زمنه، و الفصول الأبقراطية، في الطب. ومات في بغداد. ابن خلكان: ١/ ١٦٧ وفهرست ابن النديم: الفن الثالث من المقالة السابعة. وطبقات الأطباء: ١/ ١٨٤.

(١) الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي اليحمدي، أبو عبد الرحمن: من أئمة اللغة والادب، وواضع علم العروض، أخذه من الموسيقى وكان عارفا بها. وهو أستاذ سيبويه النحوي. ولد في البصرة ومات فيها سنة ١٧٠هـ، وعاش فقيرا صابرا. كان شعث الرأس، شاحب اللون، قشف الهيئة، متمزق الثياب، متقطع القدمين، مغموراً في الناس لا يعرف. قال النضر بن شميل: ما رأى الرأوون مثل الخليل ولا رأى الخليل مثل نفسه. له كتاب العين في اللغة و معاني الحروف و جملة آلات العرب و تفسير حروف اللغة وكتاب العروض والنقط والشكل والنغم. وفيات الأعيان:١/ ١٧٢ وإنباه الرواة: ١/ ٣٤١.

(٢) سيبويه: عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه: إمام النحاة، وأول من بسط علم النحو. ولد في إحدى قرى شيراز، وقدم البصرة، فلزم الخليل بن أحمد ففاقه. وصنف كتابه المسمى كتاب سيبويه، في النحو، لم يصنع قبله ولا بعده مثله. ورحل إلى بغداد، فناظر الكسائي. وأجازه الرشيد بعشرة آلاف درهم. وعاد إلى الأهواز فتوفي بها، وقيل: وفاته وقبره بشيراز. وكانت في لسانه حبسة. و سيبويه بالفارسية رائحة التفاح. وكان أنيقاً جميلاً، توفي شاباً سنة ١٨٠هـ. ابن خلكان: ١/ ٣٨٥ والبداية والنهاية: ١٠/ ١٧٦ وتاريخ بغداد:١٢/ ١٩٥ وطبقات النحويين: ٦٦.

يحيى بن عدي[1] على يد الفارابي[2].....

(١) يحيى بن عدي بن حميد بن زكريا، أبو زكريا: فيلسوف حكيم، انتهت إليه الرياسة في علم المنطق في عصره. ولد بتكريت، وانتقل إلى بغداد. وقرأ على الفارابي، وترجم عن السريانية كثيراً إلى العربية، وتوفي ببغداد سنة ٣٦٤هـ، ودفن في بيعة القطيعة. كان ملازماً لنسخ الكتب بيده، كتب نسختين من تفسير الطبري، وأهداهما إلى بعض الملوك، ونسخ كثيراً من كتب المتكلمين. وقال أبو حيان: كان شيخاً لين العريكة، مشوه الترجمة، ردئ العبارة. ولم يكن يلوذ بالإلهيات، كان ينبهر فيها ويضل في بساطتها. أخبار الحكماء، للقفطي:٢٣٦ وطبقات ابن أبي أصيبعة ١/ ٢٣٥ وحكماء الإسلام ٩٧ والإمتاع والمؤانسة: ١/ ٣٧ وابن النديم: ٢٦٤.

(٢) الفارابي: محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ، أبو نصر الفارابي، ويعرف بالمعلم الثاني: أكبر فلاسفة المسلمين. تركي الأصل، مستعرب. ولد في فاراب على نهر جيحون وانتقل إلى بغداد فنشأ فيها، وألف بها أكثر كتبه، ورحل إلى مصر والشام. واتصل بسيف الدولة ابن حمدان. وتوفي بدمشق سنة ٣٣٩هـ. كان يحسن اليونانية وأكثر اللغات الشرقية المعروفة في عصره. ويقال: إن الآلة المعروفة بالقانون، من وضعه، ولعله أخذها عن الفرس فوسعها وزادها إتقانا فنسبها الناس إليه. وعرف بالمعلم الثاني، لشرحه مؤلفات أرسطو المعلم الأول وكان زاهداً في الزخارف، لا يحفل بأمر مسكن أو مكسب، يميل إلى الانفراد بنفسه، ولم يكن يوجد غالباً في مدة إقامته بدمشق إلا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض. له نحو مئة كتاب، منها الفصوص ترجم إلى الألمانية، و إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها و آراء أهل المدينة الفاضلة. وفيات الأعيان:٢/ ٧٦ وطبقات الأطباء: ٢/ ١٣٤ تاريخ حكماء الإسلام:٣٠ والبداية والنهاية ١١: ٢٢٤ وفيه: كان يقول بالمعاد الروحاني لا الجثماني . الوافي بالوفيات:١ / ١٠٦ ومفتاح السعادة: ١/ ٢٥٩.

ودرس ثابت بن قُرّة[1] على يد محمد بن موسى[2][3].....

٣)- حرية التنقل:

ولغير المسلمين من أهل للديانات الأخرى حرية التنقل والحركة، والسفر والترحال، من بلد لآخر، في أي وقت شاؤوا، ولأي اتجاه ساروا، فقد جاء في العهد

---

(١) ثابت بن قرة بن زهرون الحراني الصابئ، أبو الحسن: طبيب حاسب فيلسوف. ولد ونشأ بحران بين دجلة والفرات وحدثت له مع أهل مذهبه الصابئة أشياء أنكروها عليه في المذهب، فحرم عليه رئيسهم دخول الهيكل، فخرج من حران، وقصد بغداد، فاشتغل بالفلسفة والطب فبرع، واتصل بالمعتضد الخليفة العباسي فكانت له عنده منزلة رفيعة. وصنف نحو ١٥٠ كتاباً، منها الذخيرة في علم الطب. وكان يحسن السريانية وأكثر اللغات الشائعة في عصره، فترجم عنها كثيراً إلى العربية. وتوفي في بغداد سنة ٢٨٨هـ. طبقات الأطباء:١/ ٢١٥ وحكماء الإسلام: ٢٠ والفهرس التمهيدي: ٤٧٧ وابن خلكان: ١/ ١٠٠.

(٢) انظر: مواطنون لا ذمّيون (٧١).

(٣) الخوارزمي: محمد بن موسى الخوارزمي، أبو عبد الله: رياضي فلكي مؤرخ، من أهل خوارزم، ينعت بالأستاذ. أقامه المأمون العباسي قيما على خزانة كتبه، وعهد إليه بجمع الكتب اليونانية وترجمتها، وأمره باختصار المجسطي لبطليموس، فاختصره وسماه السند هند أي: الدهر الداهر، فكان هذا الكتاب، كما يقول ملتبرون الجغرافي أساساً لعلم الفلك بعد الإسلام. وللخوارزمي كتاب الجبر والمقابلة ترجم إلى اللاتينية ثم إلى الإنكليزية، ونشر بهما وطبع بالعربية مختصر منه، والزيج نقل عنه المسعودي، و التاريخ نقل عنه حمزة الأصفهاني، و صورة الأرض من المدن والجبال الخ و عمل الإسطرلاب و وصف إفريقية وهو قطعة من كتابه رسم المعمور من البلاد. وعاش إلى ما بعد وفاة الواثق بالله توفي حوالي ٢٣٢هـ. ابن النديم ٢٧٥ وأخبار الحكماء ١٨٧ وكشف الظنون: ٥٧٩.

الذي أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهل (أيلة) النصارى قرب العقبة: «بسم الله الرحمن الرحيم هذه أمنةٌ من الله، ومحمد النبي رسول الله إلى يوحنا بن رؤبة، وأهل أيلة سفنهم وسياراتهم في البر والبحر: لهم ذمة الله، وذمة محمد النبي، ومن كان معهم من أهل الشام واليمن.. وإنه لا يحل أن يُمنَعوا ماءً يردونه ولا طريقاً يريدونه من بر وبحر»[1].

٤)- حرية العمل والكسب:

إن أبواب العمل مفتوحة للمسلمين ولغيرهم لممارسة أي عمل أو مهنة وهذا ما دفع غير المسلمين داخل المجتمع الإسلامي بكل ثقة وطمأنينة أن يتوجهوا إلى الأعمال التي تدر أكبر قدر من الأرباح، فقد كانوا صيارفة وصياغاً وتجاراً وأطباء[2].

وكذلك الأمر بالنسبة لتولي وظائف الدولة فلهم مطلق الحرية في ذلك باستثناء الوظائف التي لها السّمة الدينية الاعتقادية البحتة كالإمامة العامة والقضاء.

ولهم المشاركة فيما يسمى مجلس الشعب ترشيحاً وانتخاباً لأن عضوية هذا المجلس تفيد في إبداء الرأي للدولة وعرض مشاكل وأحوال المواطنين ومعالجتها.[3]

ولعل في شهادة السير توماس أرنولد[4] صاحب كتاب (تاريخ الدعوة إلى الإسلام) أبلغ دليل على ما سبق عرضه حيث بيّن أنه كانت لأهل الذمة فترات طويلة تعتبر

---

(١) انظر: السيرة النبوية (٢/ ٥٢٦).

(٢) انظر: الخراج (٦٩).

(٣) انظر: أحكام الذميين والمستأمنين(٨٤).

(٤) توماس ووكر آرنولد: Thomas Walker Arnold مستشرق إنكليزي. من أهل لندن. تعلم في كمبردج. وعين مدرساً في كلية علي كره بالهند سنة ١٨٨٨ فأستاذاً للفلسفة في لاهور =

العهود الزاهرة في تاريخهم، لما لقيه هؤلاء من تسامح في ممارسة شعائرهم الدينية، وفي بناء الكنائس والأديرة وفي مساواتهم بالمسلمين في الوظائف فكانت طوائف الموظفين الرسميين تضم مئات من المسيحيين، وقد بلغ عدد الذين رقوا منهم إلى مناصب الدولة العليا من الكثرة لدرجة أثارت شكوك المسلمين[1].

٥)- الحرية الاجتماعية:

والمقصود بها حرية ممارسة كل النشاطات الاجتماعية كالمهرجانات والأعياد والزيارات وكانت سمة المجتمع الإسلامي هي التعايش السلمي بين كل طوائفه وملله وقد سبق الحديث عن الآية التي حثت على البر وحسن الصلة لغير المسلمين، وكان النبي يعود مرضى غير المسلمين، ويزور جيرانه منهم، ويتفقد أحوالهم، فيحسن إلى محتاجهم، ويتجاوز عن مسيئهم، ويدعوهم للإسلام بكل رفق ولين[2].

ولقد كان احتفال غير المسلمين بأعيادهم ومناسباتهم فيما بينهم من الأمور المألوفة لدى المجتمع الإسلامي في جو من الحرية والتسامح[3].

= فرئيساً للكلية الشرقية في جامعة البنجاب. وعاد إلى لندن، فعين أستاذاً للعربية في جامعتها سنة ١٩٠٤ فمديراً لمعهد الدراسات الشرقية. وزار مصر قبيل وفاته. له كتب بالإنكليزية في تعاليم الإسلام و المعتزلة والخلافة وقد ترجم الأخير إلى العربية وطبع. وله كتب بالإنكليزية أيضاً في الفن والرسم الإسلاميين، ساعده فيها لوي بنيون من رسامي الفنون الشرقية. قال آربري: كان آرنولد مرجعاً في الشؤون الإسلامية. مجلة المجمع العلمي العربي ٢٣: ٢٧٧ .

(١) انظر: تاريخ الدعوة إلى الإسلام (٨١ وما بعدها).

(٢) انظر: صحيح البخاري (٤/ ٤).

(٣) انظر: الديّارات للشابُشتي (١٤).

٦)- حرية التفكير وحق إبداء الرأي:

منح الإسلام حرية التفكير، وحق إبداء الرأي لأتباع الأديان التي تعيش في ظل الدولة الإسلامية، وفي داخل المجتمع الإسلامي، وفقاً لمتبنياته في تحرير العقل والتفكير، بإقامة الحجة والبرهان، فلا يمنع من أن يكون الإنسان حراً في إبداء رأيه غير مقلد ولا تابع، وإن يعبر عن هذا الرأي عن طريق الحوار وبالأسلوب الذي يريده، حتّى وإن كان رأيه ساذجاً ومخالفاً للواقع، كما هو الحال عن تعبير أهل الكتاب عن آرائهم ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

وأمر القرآن الكريم باستخدام الأسلوب الحسن في الجدال مع أصحاب الديانات، وهذا يقتضي منح الحرية لهم في إبداء وجهات نظرهم في مختلف القضايا والأحداث، قال تعالى: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٦].

والقرآن الكريم يدعو صراحة إلى حرية الحوار وإبداء وجهات النظر المختلفة، دون إكراه أو إرهاب فيقول: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلّا نَعْبُدَ إِلّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

فالإسلام لم يمنع غيره من إبداء وجهات النظر عن طريق الحوار العلمي الهادئ الذي يقوم على أسس سليمة عن طريق إقامة الدليل والحجّة والبرهان، وهنالك قيود

قيّد بها الإسلام غير المسلمين طبقاً لمعاهدة التعايش السلمي التي اتفق عليها المسلمون مع من يعيش في مجتمعهم وبيئتهم، وهذه القيود لا تختص بهم، بل هي شاملة لهم وللمسلمين حفاظاً على المقدسات واحتراماً للحريات العامة وقد تقدّم ذكرها.

وكان غير المسلمين في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله يتمتعون بحرية التفكير وفي إبداء وجهات نظرهم وآرائهم دون ضغط أو إكراه، وكانت تلك الآراء تلقى على مسامع رسول الله صلى الله عليه وآله.

عن عبد الله بن عباس: إنّ عبد الله بن صوريا وكعب بن الأشرف[1] ومالك ابن الصيف وجماعة من اليهود ونصارى أهل نجران خاصموا أهل الإسلام كل فرقة تزعم أنها أحقّ بدين الله من غيرها، فقالت اليهود: نبينا موسى أفضل الأنبياء، وقالت النصارى: نبينا عيسى أفضل الأنبياء وكتابنا الإنجيل أفضل الكتب، وكل فريق منهما قالوا للمؤمنين: كونوا على ديننا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥].

---

(١) كعب بن الأشرف الطائي، من بني نبهان: شاعر جاهلي. كانت أمه من بني النضير فدان باليهودية. وكان سيداً في أخواله. يقيم في حصن له قريب من المدينة، ما زالت بقاياه إلى اليوم، يبيع فيه التمر والطعام. أدرك الإسلام، ولم يسلم، وأكثر من هجو النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه، وتحريض القبائل عليهم وإيذائهم، والتشبيب بنسائهم. وخرج إلى مكة بعد وقعة بدر فندب قتلى قريش فيها، وحض على الأخذ بثأرهم. وعاد إلى المدينة. وأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقتله، فانطلق إليه خمسة من الأنصار، فقتلوه في ظاهر حصنه، وحملوا رأسه في مخلاة إلى المدينة في السنة الثالثة للهجرة. الروض الأنف: ٢/ ١٢٣ وابن الأثير: ٢/ ٥٣ والطبري: ٣/ ٢ والمحبر: ١١٧ و٢٨٢.

وقيل: إن ابن صوريا قال لرسول الله صلى الله عليه وآله: ما الهدى إلّا ما نحن عليه فاتبعنا يا محمّد تهتد، وقالت النصارى مثل ذلك، فأنزل الله هذه الآية[1].

ولم تقتصر الحرية في الرأي على أهل الكتاب، بل شملت حتى المشركين من غيرهم، فحينما قدم وفد بني تميم على رسول الله صلى الله عليه وآله نادوه من وراء الحجرات: «اخرج إلينا يا محمّد»، فخرج إليهم، فقالوا: جئناك لنفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا، فقال: «قد أذنت»، فقام عطارد بن حاجب[2] وقال: الحمد لله الذي جعلنا ملوكاً والذي له الفضل علينا، والذي وهب علينا أموالاً عظاماً نفعل بها المعروف، وجعلنا أعزّ أهل المشرق وأكثر عدداً وعدّة، فمن مثلنا في الناس؟ فمَن فاخرنا فليعد مثل ما عددنا، ولو شئنا لأكثرنا من الكلام، ولكنا نستحي من الإكثار، ثمّ جلس.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لثابت بن قيس بن شماس[3]: «قم فأجبه»، فقام، فقال: الحمد لله الذي السماوات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه علمه،

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ١٨٧.

(٢) عطارد بن حاجب بن زرارة التميمي: خطيب، من سراة بني تميم. قيل: وفد على كسرى في الجاهلية وطلب منه قوس أبيه، فردها عليه وكساه حلية ديباج. ولما ظهر الإسلام وفد على النبي صلى الله عليه وسلم فكان خطيبه، واستعمله على صدقات بني تميم. وارتد بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وتبع سجاح. ثم عاد إلى الإسلام وقال في سجاح:

أضحت نبيتنا أنثى يطاف بها * وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا

كانت وفاته نحو ٢٠هـ. الإصابة: ت ٥٥٦٨ والبيان والتبيين: ١/ ١٧٨، جمهرة الأنساب: ٢٠٨.

(٣) ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي الأنصاري: صحابي، كان خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد أحداً وما بعدها من المشاهد. وفي الحديث: نعم الرجل ثابت. ودخل عليه النبي =

ولم يكن شيء قط إلّا من فضله، ثم كان من فضله أن جعلنا ملوكاً، واصطفى من خير خلقه رسولاً أكرمهم نسباً وأصدقهم حديثاً وأفضلهم حسباً...

ثم قام الزبرقان بن بدر[1] ينشد، وأجابه حسان بن ثابت[2]، فلما فرغ حسان من قوله، قال الأقرع: إنّ هذا الرجل خطيبه أخطب من خطيبنا، وشاعره أشعر من

= صلى الله عليه وسلم وهو عليل، فقال: أذهب الباس رب الناس عن ثابت بن قيس، قتل يوم اليمامة شهيداً في خلافة أبي بكر سنة ١٢هـ. صفة الصفوة: ١/ ٢٥٧.

(١) الزبرقان بن بدر التميمي السعدي: صحابي، من رؤساء قومه. قيل اسمه الحصين ولقب بالزبرقان وهو من أسماء القمر لحسن وجهه. ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقات قومه فثبت إلى زمن عمر، وكف بصره في آخر عمره. وتوفي في أيام معاوية سنة ٤٥ تقريباً. وكان فصيحاً شاعراً، فيه جفاء الأعراب. قال ابن حزم: وله عقب بطليرة لهم بها تقدم، وكانوا أول نزولهم بالأندلس نزلوا بقرية ضخمة سميت الزبارقة نسبة إليهم، ثم غلب الإفرنج عليها، فانتقلوا إلى طليرة، وينسب إليه قول النابغة: تعدو الذئاب على من لا كلاب له. الإصابة: ١/ ٥٤٣ والآمدي: ١٢٨ وجمهرة الأنساب: ٢٠٨ وخزانة البغدادي: ١/ ٥٣١.

(٢) حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري، أبو الوليد: الصحابي، شاعر النبي صلى الله عليه وسلم وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام. عاش ستين سنة في الجاهلية، ومثلها في الإسلام. وكان من سكان المدينة. واشتهرت مدائحه في الغسانيين، وملوك الحيرة، قبل الإسلام، وعمي قبيل وفاته. لم يشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم مشهداً، لعلة أصابته. وكانت له ناصية يسدلها بين عينيه. وكان يضرب بلسانه روثة أنفه من طوله، قال أبو عبيدة: فضل حسان الشعراء بثلاثة: كان شاعر الأنصار في الجاهلية، وشاعر النبي في النبوة، وشاعر اليمانيين في الإسلام. وكان شديد الهجاء، فحل الشعر. قال المبرد في الكامل: أعرق قوم كانوا في الشعراء آل حسان، فإنهم يعدون ستة في نسق، كلهم شاعر، وهم: سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بن المنذر ابن حرام. توفي في المدينة سنة ٥٤هـ.

شاعرنا، وأصواتهم أعلى من أصواتنا، فلما فرغوا أجازهم رسول الله صلى الله عليه وآله، فأحسن جوائزهم وأسلموا[1].

ومن الوقائع الدالة على التمتع بحرية إبداء الرأي أن قوماً من اليهود أتوا عمر بن الخطاب، فقالوا: قد أتيناك نسألك عن أشياء، فقال عمر: سلوا عمّا بدا لكم، قالوا: أخبرنا عن أقفال السماوات السبع ومفاتيحها... فأطرق عمر ساعة ثمّ فتح عينيه ثم قال: سألتم عمر بن الخطاب عمّا ليس له به علم، ولكن ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله يعني: عليّاً رضي الله عنه يخبركم بما سألتموني عنه، فأرسل إليه فدعاه، فلما أتاه قال له: يا أبا الحسن إن معاشر اليهود سألوني عن أشياء لم أجبهم فيها بشيء، وقد ضمنوا لي إن أخبرتهم أن يؤمنوا بالنبي صلى الله عليه وآله.

فقال لهم أمير المؤمنين رضي الله عنه: «يا معشر اليهود أعرضوا عليّ مسائلكم» فقالوا له مثل ما قالوا لعمر، فلما أجابهم، أقبلوا يقولون: نشهد أن لا إله إلاّ الله، وأنّ محمّداً رسول الله، وأنّك ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله[2].

وكان لهم الحرية في إبداء وجهات النظر، ومن ذلك قول أحد اليهود للإمام علي رضي الله عنه: (ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم فيه!)، فأجابه رضي الله عنه: (إنما اختلفنا عنه لا فيه)[3].

---

(١) تاريخ الطبري ٢/ ١٨٨.

(٢) الطبري ٤/ ٢٢٥.

(٣) البداية والنهاية ٣/ ٥٥٤.

لأهل الكتاب حقّ كتابة التوراة والإنجيل وسائر الكتب الخاصة بهم، ولهم حقّ الطبع والنشر.

٧)- حقّ التقاضي والحماية القانونية:

من مصاديق إنسانية الإسلام ورحمته باتباع الأديان أن تبنى حمايتهم من كل ألوان الاضطهاد والظلم والعدوان، بقسميه الخارجي والداخلي، فهم آمنون على أرواحهم وأعراضهم وممتلكاتهم، وتجلى هذا التبني منذ الأيام الأولى لإقامة الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، حيث كتب رسول الله صلى الله عليه وآله كتاباً حدد فيه دستور العلاقات بين مواطني المدينة على اختلاف أديانهم، وقد جاء في هذا الكتاب الشريف:

«... وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصرة والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم... وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم[1].

---

(١) البداية والنهاية ٣/ ٥٥٤.

شهادات العالم الغربي في سماحة الإسلام

الاعتراف بحق الاعتقاد والتدين من قبل الإسلام والمسلمين من الحقائق البارزة التي اعترف بها غير المسلمين إنصافا منهم في قول الحقيقة لما لمسوه وشاهدوه من ممارسات إيجابية في علاقات المسلمين بغيرهم.

فقد كتب البطريك المسيحي (سيمون) من مدينة مرو: (إنّ العرب الذين أورثهم الله ملك الأرض لا يهاجمون الدين المسيحي أبداً... إنهم يساعدوننا ويحترمون إلهنا وقديسنا...)[1].

وقال مونتجومري وات: (كان السبب الأول في نجاح محمّد صلى الله عليه وآله وسلم جاذبية الإسلام، وقيمته كنظام ديني واجتماعي لسد حاجات العرب الدينية والاجتماعية.. كما أنّ بصيرة محمّد صلى الله عليه وآله ودبلوماسيته ومهارته الإدارية لعبت دوراً كبيراً في نجاحه.. يضاف إلى ذلك أن مهارته في إدارة التحالف الذي يرأسه.. جعل الكل يشعرون، ماعدا أقلية لا أهمية لها، أنهم يعاملون معاملة حسنة، زادت الفرق بين شعور الانسجام والرضا في الأمة الإسلامية وشعور القلق في مكة، ولاشك أن ذلك أثّر في كثير من الناس وجذبهم إلى محمّد).

وقال أيضاً: (حتى إذا ما بدت علامات التحلل على الإمبراطورية البيزنطية والفارسية، وشعر الناس بالحاجة إلى شيء متين يتمسكون به، قدمت الأمة الإسلامية لهم هذا الاستقرار المطلوب)[2].

---

(١) نقلاً عن مجلة النبأ، العدد ٥١، الكاتب عمرو الواجدي، عام١٩٩٨م.

(٢) الغرب يشيد بالإسلام ديناً، عبد الحميد علي السراج، ص ٩٨.

وقال جوستاف لوبون[1]: (إن القوة لم تكن عاملاً في انتشار الإسلام.. والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب أي المسلمين)[2].

وقال سير توماس أرنولد: (يمكننا أن نحكم من الصلات الودية التي قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب بأنّ القوة لم تكن عاملاً حاسماً في تحويل الناس إلى الإسلام)[3].

وقال توماس كاريل[4]: (إن اتهام محمد بالتعويل على السيف في حمل الناس على

---

(١) جوستاف لوبون عالم ومؤرخ فرنسي شهير أشهر كتبه «حضارة العرب» يعد كتاب «حضارة العرب» من أمهات الكتب التي صدرت في العصر الحديث في أوروبا لإنصاف الحضارة العربية الإسلامية وإظهار ما للعرب من فضل في تمدين أوروبا. وقد ألّف الكتاب العلاَّمة الفرنسي الكبير جوستاف لوبون في عام ١٨٨٤م.

وقد راع لوبون، الذي قام برحلات عديدة في العالم الإسلامي، الجحود الذي ساد في أوروبا في القرن التاسع عشر للحضارة الإسلامية والعربية. فرأى أن يبعث عصر العرب الذهبي من مرقده وأن يظهره في صورته الحقيقية قدر ما يستطيع.

(٢) المصدر السابق ص ٢١٣.

(٣) هذه سماحة الإسلام، هناء الصفدي، ص ٥٧.

(٤) توماس كاريل: الفيلسوف الإنجليزي الشهير توماس كاريل (١٧٩٥م-١٨٨١م)، فقد خصص في كتابه (الأبطال وعبادة البطولة) فصلاً لنبي الإسلام بعنوان: «البطل في صورة رسول: محمد-الإسلام»، عد فيه النبي (صلى الله عليه وسلم) واحداً من العظماء السبعة الذين أنجبهم التاريخ.. وقد رد كارلايل مزاعم المتعصبين حول النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال: يزعم المتعصبون من النصارى والملحدون أن محمداً لم يكن يريد بقيامه إلا الشهرة الشخصية =

الاستجابة لدعوته سخف غير مفهوم)[1].

وقالت الكاتبة الإيطالية لورا فيشيا فاغليري: (إن الإسلام لا يبيح امتشاق الحسام إلاّ دفاعاً عن النفس، وهو يحرم العدوان تحريماً صريحاً.. وأباحت الشريعة القتال للمسلمين دفاعاً عن حرية الضمير لإقرار السلم واستتاب الأمن والنظام)[2].

وقال روبرتسون: (إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الجهاد والتسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، الذين غلبوهم وتركوهم أحراراً في إقامة شعائرهم الدينية)[3].

وقال المسيو بونه موري: (الأسباب التي جعلت للإسلام الفوز في إفريقية بين السود، وأهم هذه الأسباب بساطة العقيدة الإسلامية التي تنحصر في كلمة لا إله إلّا الله محمد رسول الله... كذلك الإسلام ليس فيه طبقات ودرجات، فالزنجي لا يرى نفسه محتقراً في الجماعة الإسلامية)[4].

= ومفاخر الجاه والسلطان ..، لقد كانت في فؤاد ذلك الرجل الكبير ابن القفار، المتورد المقلتين، العظيم النفس المملوء رحمة وخيراً وحناناً وبراً وحكمةً..، أفكار غير الطمع الدنيوي، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه، وكيف لا وتلك نفس صامتة ورجل من الذين لا يمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جادين.

وبعد أن يتعرض بالتحليل والتفسير لعظمة نبي الإسلام ونبوته وتعاليمه السامية، يقول: «وإني لأحب محمداً لبراءة طبعه من الرياء والتصنع».

(١) اقرؤوا الإسلام جيداً، توماس كاريل، ترجمة عبد الحميد السراج، ص ٩٣.

(٢) شمس العرب تسطع على الغرب، زغريد هونكة، ص ١٨٣.

(٣) دراسات حول صدام الحضارات، موسى زاهر أفندي، ص ٩١.

(٤) إفريقيا المسلمة، المسيويونة موري، ترجمة محمد أحمد العقاد، ص ١٥٩.

ونحو هذا صرّح الكاتب المسيحي الفرنسي هوبير ديتان حاكم المستعمرات الفرنسية بأفريقيا حتى سنة ١٩٥٠م في كتابه «الديانات في أفريقيا السوداء» قال: (إن انتشار دعوة الإسلام في أغلب الظروف لم تقم على القسر، وإنما قامت على الإقناع... وكثيراً ما انتشر الإسلام بالتسرب السلمي البطيء من قوم إلى قوم.. وقد يسّر انتشار الإسلام أمر آخر هو أنه دين فطرة بطبيعته سهل التناول، لا لبس ولا تعقيد في مبادئه، سهل التكييف والتطبيق في مختلف الظروف، ووسائل الانتساب إليه أيسر وأيسر، إذ لا يطلب من الشخص)[١].

ولتعميم الفائدة والاطلاع على ما كتبه علماء الغرب أحببت أن أنقل بعض شهاداتهم، وذلك على سبيل المثال لا الحصر.

وقال الأب ميشون: (إن من المحزن للأُمم المسيحية أن يكون التسامح الديني الذي هو أعظم ناموس للمحبة بين شعب وشعب، هو مما يجب أن يتعلمه المسيحيون من المسلمين)[٢].

ويرى المؤرخ المسلم شكيب أرسلان أن الذي منع الترك عن حمل النصارى الذين كانوا تحت سلطانهم على الإسلام أو الجلاء، هو الشرع المحمدي الذي يمنع الإكراه في الدين ويرضى من المعاهد بالجزية[٣].

---

(١) الديانات في إفريقيا السوداء، هوبير ديتان، ترجمة هناء وليد الغافقي، ص ٣١٨.

(٢) حصاد الغرور، محمد التلبيسي، ص ١٨٩.

(٣) المصدر السابق، ص ٢١١.

وقال أيضاً: (ولقد كانت في السلطنة العثمانية عشرات الملايين من المسيحيين يعيشون وافرين مترفهين كاسبين متمتعين بامتيازات كثيرة مدة عمل الأتراك بالشرع الإسلامي، فلما جاءت الجمهورية التركية الحاضرة وبطل العمل بالشرع وأخذ الأتراك بأوضاع الإفرنج وقلدوهم في كل شيء... لم يبق في جميع الأناضول إلاّ فئة قليلة جداً من المسيحيين عدة آلاف)[1].

❖ والخلاصة:

بعد هذا العرض لموقف الإسلام من الأديان السابقة وأتباعها، لابد من الإشارة إلى أنه إذا حدث عبر فترة من فترات تاريخ العلاقة بين المسلمين وغيرهم أيُّ تغيير في هذه العلاقة نحو السلبية في التعامل، والقسوة في الاحتكاك، والوصول إلى حد السِنان، فإن ذلك التغيير يجب أن ننسبه قطعاً إلى عوامل أخرى لا علاقة لها مطلقاً بجوهر الإسلام، وحقيقة رسالته، فلقد أخطأ بعض حكام المسلمين عبر التاريخ، وأساءوا إلى المسلمين وإلى غير المسلمين، فهؤلاء ليسوا حجة على الإسلام والمسلمين، وكان العلماء يقفون دائماً في وجوه هؤلاء، كما سبق الحديث عن الإمام الأوزاعي وابن تيمية، حيث يصححون الانحراف، ويعيدون القضايا إلى نصابها.

وإذا حدثت أخطاء من قبل المسلمين فيجب النظر إلى الأسباب التي دفعتهم إليها وغالباً ما نرى أن سبب تغير العلاقة إلى السلبية، هو في الحقيقة ردة فعل على الأخطاء التي تُرتكب من قبل غير المسلمين في حق المسلمين.

---

(١) حصاد الغرور، محمد التلبيسي، ص ١٨٩.

وحدث أيضاً في بعض فترات التاريخ أن قام بعض عوام المسلمين بالاعتداء على بعض الكنائس والمعابد في مصر والشام، ولكن الحكام المسلمين آنذاك كفّوا أيدي العابثين، وقدموا المساعدات اللازمة لغير المسلمين، إلا أن السبب في تصرف عوام المسلمين كان ردة فعل على ما قام به بعض غير المسلمين من إحراق بعض المساجد والبيوت فما كان من العوام إلا الرد بمثل هذه الطريقة[1].

وشهادة المؤرخ رنسيمان خير توضيح لما سبق حيث يقول: (لم يُثِرِ التعصبُ الإسلامي..إلا التعصب المسيحي الذي دل عليه ما قام به الصليبيون من سفك الدماء)[2].

والحقيقة التي يجب إعلانها بوضوح هي أنَّ من مبادئ الإسلام احترم وجود الآخرين عموماً، وهم المخالفون له في الرأي والاعتقاد، واعترف بكيانهم دائماً، سواء أكانوا أفراداً أم دولاً، فقد جاء في سورة الفصل -أي التي فصلت بين المسلمين وغيرهم- قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، والله تعالى يقول: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَآءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

لقد فصّل القرآن بذكر كل الآخرين، واعترف بوجودهم جميعاً، ولو كانوا غير المسلمين، فلهم وجودهم المطلق، والسبيل الأمثل للتعامل معهم هو الدعوة إلى الله

---

(١) انظر: قصة الاضطهاد الديني جهاد عبدالواحد ص ١١٣ – دار النهضة/ مصر – ط١.

(٢) انظر: تاريخ الحروب الصليبية (١/ ٤٢٧).

تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، والمعاملة القائمة على العدل، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧].

- **فالوشائج التي تربط المسلمين بغيرهم:**

أخوة في الإنسانية يلتقي عليها المسلمون مع البشر كافة سواء كانوا من أهل الكتاب أو من مذاهب وملل أرضية.

وإن الاتفاق في الاعتقاد ليس شرطاً لاستمرار الوجود على ظهر الأرض في مجمل التصور الإسلامي، وبنفس الوقت إن الاختلاف في الاعتقاد لا يعني مطلقاً أنه سبب في حد ذاته لإلغاء الوجود كله على وجه الأرض، وصدق الله حين قال: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦].

توصية ورجاء

١- حبذا لو ينظر أتباع الديانات السماوية بكل شجاعة وصدق وإخلاص إلى أنّ مرور الزمن، وكثرة الترجمات للكتب المقدسة عندهم، ووجود أصحاب المطامع والأهواء، كل ذلك قد أثر على الأصول الحقيقية للدين السماوي المنزّل، الأمر الذي فتح المجال لبذور التعصب والعداء أن تنمو بين عباد الله تعالى، فهذا كله يجب مراقبته وتصحيحه،وإعادة النظر في كل التأويلات والتفسيرات الخاطئة والاستعانة على ذلك بالعقول النيرة، والأبحاث العلمية الحديثة.

٢- دعوة كل أتباع الديانات السماوية إلى دراسة القرآن الكريم الذي هو آخر خطاب إلهي للبشر، دراسةً جدِّيةً متفحصة، بعيدة عن التعصب، والنظرة المسبقة الخاصة، حتى يصلوا جميعاً إلى مبدأ المعاملة بالمثل: فنحن المسلمين قد آمنّا بكل أنبياء ورسل الله السابقين، وآن لأتباع هؤلاء جميعاً أن يعاملونا بالمثل: فينضموا إلينا ويؤمنوا بنبينا الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم.